

سيبيريا والنفي السياسي اليها

(وكلام سانهج انكليزي ساج فيها)

لحضرة الياس افندي خليل عساوي ب . ع

قيل ان سجن ملوك فرنسا العلماء والادباء والابرياء في سجن الباستيل المشهور هو الذي دفع الشعب الفرنسي الى الثورة الفرنسية التي قلبت وجه العالم وخرج منها الاصلاح السياسي . واذا كان هذا القول صحيحاً فقد جاز ان نقول ان نفي روسيا الناس الى سيبيريا كان له شيء من ذلك التأثير على السياسة الروسية التي بدا فيها الانقلاب الذي نراه . لان سيبيريا عند الروس كانت تقابل الباستيل عند الفرنسيين . ويسر كل محب لهذه الدولة العظيمة ان يراها قد دخلت الآن في طريق الاصلاح بالمنشور الذي نشره جلالة القيصر منذ مدة يعلن فيه رغبته الشديدة في اصلاح احوال الامة التي وضعها الله في ذمته . ولقد رأيت لهذه المناسبة ان اخلص شيئاً عن سيبيريا ومنافعها السياسية واحوالها القديمة والحديثة ومنه يطالع القراء على التحسين المستمر في احوال روسيا

تمهيد

سيبيريا والمجنون السياسيون

سيبيريا واقعة في القسم الشمالي من قارة آسيا . وهي بلاد واسعة الاطراف نخالها الانهر في كل جهاتها ويغطيها الثلج خصوصاً في شتائها مدة طويلة من السنة . وسكانها يبالغون عشرة ملايين نفس نصفهم من السكان الاصليين والنصف الآخر روسيو الاصل من اضطرتهم حكومة بلادهم للاقامة والتوالد هناك . والبلاد خصبة في اكثر جهاتها خصوصاً القسم الغربي منها . ويبدأ تاريخ خصبها بابتداء هجرة التجار وخصوصاً الالمان اليها منذ مدة قريبة . وبذلك اصبحت البلاد تضاهي بمدنيتها كثيراً من البلاد الاوروبية حتى ان في بعض مدنها الكبيرة كاركيتسك وتومسك ملاعب متقنة لتمثيل الروايات ومطاعم وفنادق كما في احسن البلدان الاوروبية مما يسلي المهاجرين من اوطانهم

وقد افتتحت روسيا سيبيريا في سنة ١٦٥٨ وجعلتها من حين افتتاحها مستعمرة نفي اليها المجرمين السياسيين والمدنيين وغيرهم من كان يقع عليهم سخط القياصرة والحكام .

فبطرس الاول كان يُبعد اليها العصاة افواجاً افواجاً . ثم حكم بعده بعض المملكات فكان
ينفي اليها من اذن البين من اهل البلاط . ثم جاءت الملكة كاترين المشهورة
واخذت ترسل اليها البولنديين زرافات بدون ادنى رحمة او شفقة . ثم بعد ذلك
صار يُنفي اليها النهليست والسوساليست وغيرهم مما كان يُشتبه في امرهم . ولكن عدداً من المنفيين
كان قليلاً حتى القرن الثامن عشر حين ابتداء عددهم يزيد زيادة كلية . الا ان عددهم
لم يكن يُعرف تماماً قبل سنة ١٨٢٣ لانهم لم يكونوا يعملون احصاءات رسمية كما في الوقت
الحاضر . ولكن من المحقق انه في ابتداء القرن التاسع عشر كان يُنفي الى سيبيريا كل سنة
نحو ألفي رجل . وابتداءً هذا العدد يزيد حتى صار بين سنة ١٨٧٣ و ١٨٧٧ و ١٨٠٠
كل سنة . وفي سنة ١٨٨٢ اي حين اغتيال الما سوف عليه القيصر اسكندر الثاني بلغ
عدد المنفيين ٢٠٠٠٠ ماعدا نساءهم واولادهم الذين تبعوهم وعددهم ٦٠٠٠ . ومن هؤلاء
المنفيين من يُحكم عليه بالاشغال الشاقة ومنهم بسقوط الحقوق المدنية ومنهم بالنفي فقط .
اما الذين يُحكم عليهم بالاشغال الشاقة فيوزعون بين مناجم الذهب ومعامل الملح في كارا
وازوليا . ولما كانت هذه المناجم والمعامل لا تسع اكثر من ١٠٠٠٠ رجل فيرسل الباقون
الى سفاليان حيث يشتغلون في مناجم الفحم . وبعد قضاء مدة سجنهم يصير للمنفيين الحق بان
يسكنوا في الضياع والقرى . ويظهر من الاحصاءات الرسمية ان عدد الذين نُقوا منذ الابتداء
الى اواخر القرن التاسع عشر يقارب مليوني نفس وثلاث هذا العدد لم يعد يُسمع عنه خبر بعد
نفيه . ويقال انه كان منذ مدة ٢٠٠٠٠ منفي يواصلون السير في الاحراش كي يرجعوا
الى بلادهم ولكن كثيرين من هؤلاء يتجهون فيموتون في تلك الاحراش وتذهب آثارهم
ولكن المنفيين اقل كثيراً مما يظن . ففي مقاطعة توبولسك يبلغون ٤٦ في المئة من
السكان وفي مقاطعة تومسك ٢٩ وفي غيرها اكثر . ولكن المعدل ٤٩ في المئة من السكان .
وقد كان المنفيون يُسامون في الابتداء اشد العذاب ويعاملون اربداً المعاملة ولكن في السنين
الاخيرة تنهت الحكومة لذلك واخذت في اصلاح حالة السجون وجعل السجون مطابقة
للأصول الهيجينية كغيرها من سجون اوربا . والفضل في كل ذلك للفيلسوف تولستوي
الذي اذا لم يكن من فوائد قلمه غير هذا الاصلاح لكفى ذلك لوضعه في جملة المصلحين العظام
في المجتمع الانساني . وقد عثرت في احدى المجلات الانكليزية على مقالة بقلم احد سياح
الانكليز زار في خلال هذه السنة اعظم سجون سيبيريا بعد ان استأذن الحاكم العام في
ذلك . فراءت من الفائدة تلخيص مقاله . قال :

اعظم سجون سيبيريا

« لست انسى في كل حياتي تلك الليلة التي سافرت فيها من مدينة اركتيسك (عاصمة سيبيريا الوسطى الواقعة على مسافة ٤٠٠ ميل من شرقي موسكو عاصمة بلاد الروس القديمة) لاشاهد اعظم سجون سيبيريا وهو سجن «الكسندروفسكي» وكان البرد قارصاً والرياح تعوي عواء الذئاب اما الشتاء فانه في تلك البلاد يمتد الى ثلثي السنة ويشد فيه البرد حتى لا يستطيع الا القليلون ان يسكنوا تلك الاصقاع . والاهاالي انفسهم لا يكادون يقوون على احتماله فبلفنون بالفرو من قمة الرأس الى اخمص القدم بحيث يصعب التمييز بين رجالهم والنساء وقبل زيارتي لذلك السجن كنت اعتقد كما يعتقد لحد الان كثيرون غيري من الانكيز انني سارى هناك اشخاصاً يساقون للموت قسراً بسبب المعاملة الرديئة التي يذيقها اياهم الجنود والضباط الموكلون بحراستهم . واني ساسمع علاوه عن تنهدات اولئك المساكين التي تنتظر لها القلوب جلجلة السلاسل الحديدية التي تربطهم بعضهم ببعض . ولما استأذنت من حاكم اركتيسك العام بزيارة السجن كنت منتظراً ان يصادف طائي رفضاً بانأ لعلمي ان الروس يريدون ان يحنقوا عن العالم المتمدن تلك المعاملة التي يعاملون بها المنفيين . ولكن كان استغرابي عظيماً حين الفيت منه بدلاً من الرفض البات كل التسهيلات والمساعدات المحمكة وسجن الكسندروفسكي هذا واقع على مسافة ٥٠ ميلاً من شمالي اركتيسك وصار الاتفاق ان اسافر اليه ليلاً مع احد موظفي السجن لانه لا يوجد في الطريق من محاسن الطبيعة ومناظرها الجميلة ما يرغب المسافرين بالسفر اليه نهائياً . فتسلح كل منا بالمسدسات اللازمة للطريق خوفاً من ان يهاجمنا بعض الذين اتقوا مدة نفهمم واتخذوا لانفسهم بعدها حرفة اللصوصية . ذلك لان الحكومة الروسية لا تكلف نفسها ارجاعهم الى بلادهم بل تتركهم وشأنهم فيرجع منهم القليل ويقصد البعض امهات المدن السيبيرية فيجدون اشغالاً فيها . اما الاكثرون فيحتفون حرفة اللصوصية وقاطعي الطرق فيتعرضون للمسافرين ويقتلونهم ويسلبون امتعتهم ونقودهم . وسكان المدن انفسهم ترى كثيرين منهم من الاشقياء لان سكان سيبيريا وبلغون عشرة ملايين نفس نصفهم اما من المجرمين الذين اكملوا مدة سجنهم او من نسلهم . ولما كان «العنب لا يجنى من الشوك ولا التين من الحسك» فلا ينتظر اذاً ان يكون هؤلاء ادياء مهذبين . ولكن قد قدرت العناية الالهية ان لا تصادف في طريقنا احد هؤلاء اللصوص . فوصلنا الكسندروفسكي الساعة الرابعة في الصباح بعد ان ذقنا في اثناء سفرنا مرارات البرد القارس

واول شيء وقع عليه نظري كان كنيسة ارثوذكسية كبرى سقفها مغطى بالثلج . اما المكان فكان هادئاً لا يُسمع فيه غير وقع حوافر افراس يعاوها بضعة انفار من القوزاق المنوط بهم حراسة السجن . والسجن نفسه كان مظلماً كالقبر وهادئاً لا يُسمع منه ادنى حركة او صوت . وقد رأينا تجاه السجن بناءً جميلاً هو منتدى للاجتماعات . فافوقنا المركبة ودخلنا اليه . وما وقفت بنا المركبة حتى طلع من ذلك المكان عدة اشخاص كانوا من المجرمين الذين اخثاروا ان يستبدلوا سجنهم بالخدمة في ذلك النادي وهي نعمة عظيمة عند المنفيين لا ينالها منهم الا من كان سلوكه حسناً وحاز رضى رؤسائه . وقبل ان اشرح ما رأيت في سجن الكسندروفسكي لا ارى بداً من الاشارة الى سجون سيبيريا على الاجمال والمنافع التي تعود على روسيا من ارسال المجرمين اليها

سجون سيبيريا على الاجمال

من المعلوم ان كل البلاد الواقعة الى شرقي جبال اورال التي تفصل روسيا عن آسيا كانت قبل امد غير بعيد لا يُعرف عنها شيء . فكان يظنها الاوريون بلاداً قاحلة تكسوها الثلوج على مدار السنة . ويملاها الظلام عدة اشهر من كل عام . ولما كان الحكم بالقتل قليلاً جداً في بلاد الروس ارتأت الحكومة الروسية ان تبعد كل المجرمين من لصوص وقتلة وغيرهم ممن يُغضبون جلاله القيصر الى تلك البلاد الخفية فلا يرجع منهم الا القليل وبهذا تخلص الهيئة الاجتماعية من شر اعضائها الاشرار او الذين يُحسبون اشراراً . ولذلك كان الاهالي قبل امتداد السكك الحديدية في سيبيريا يتجهرون حول المجرم يوم سفره فينسون جرمه مهما كان كبيراً ويقدمون اليه بستاء المال والطعام ظناً منهم ان ذلك المنكود الحظ ذاهب الى سيبيريا ليُقبر فيها حياً . وهذا ما جعل الاوربيين بالانغون في وصف المعاملة السيئة والعذابات التي يتحملها المنفيون . ولكن كما انه في المدة الاخيرة وخصوصاً بعد الشروع في عمل السكة الحديدية السيبيرية ذهب منا كثيرون الى سيبيريا فطرحوا اعتقادهم السابق وصاروا يعرفون جيداً انها ليست البلاد التي كانوا يظنونها قبلاً وانها بلاد خصبة طيبة الهواء خصوصاً في ايام الصيف هكذا يارتي لسجون سيبيريا وان يكن في تلك السجون شيء كثير قابلاً للنقد واللوم لكنها جعلتني انبذ تصوراتي القديمة بخصوصها . فروسيا متأخرة قرناً كاملاً في الحضارة والمدنية عن باقي رصيفاتها الاوربيت . ومنذ زمن قريب كانوا يعاقبون في سجونها عقابات صارمة جداً . فكانوا مثلاً يجلدون المذنب جلداً يهون عنده الموت حتى ان جلاداً ماهراً من جلادي سيبيريا يقدر ان يذيق المجلود حنقه بستة

اسواط فقط . والمنفي بعد ان يُسجن المدة المحكوم عليه بها يُصرح له بترك السجن على شرط ان يبقى في سيبيريا مدة معينة قبل ان يُسمح له بالرجوع الى بلاده . ويحق لزوجة المنفي ان تعتبر نفسها طليقة بحسب الشريعة الروسية ولكنها اذا ارتأت ان تتبع زوجها تنقلها الحكومة مع اولادها بدون اجرة . وهناك تسكن مع اولادها في القرية الاقرب للسجن (ويوجد في اغلب الاحيان قرية بجانب كل سجن) والحكومة لا تساعد الا بدفع ثلاثة ارباع البنس (٤ مليات) في اليوم عن كل واحد من اولادها ولكنها تعطيها ثياباً لتخيطها ولتغسلها فتنتفع باجرتها . والزوج اذا حازر رضى رؤسائه يُسمح له في كثير من الاحيان ان يذهب ويسكن مع عائلته وان يشتغل ليقوم بمعاشها . والقسم الاكبر منهم لا يرجعون الى روسيا عند قضاء مدتهم بل يفضلون البقاء في سيبيريا . ولما صار في المدة الاخيرة يقصد روسيا كثير من التجار الروسيين جعلوا يرفعون العريضة وراء العريضة طالبين من جلالة القيصر ان يرسل اليهم « اوباش البلاد » فقبل جلالاته اخيراً وامر ان لا يرسل اليها بعد الآن سوى المجرمين السياسيين والمجرمين المحكوم عليهم بالسجن المؤبد . اما الباقون فيعاقبون في مدتهم كما في باقي الممالك . واكثرهم الآن ينفي الى جزيرة سفاليان الواقعة على الساحل الشرقي . وفيها اردا السجن حتى اذا دخلها المجرم لا يبقى له بارقة امل بالخروج منها حياً . وحالما يدخلها يُلغى اسمه ويسمى بدل الاسم بعدد يميزه عن غيره . ولا يُسمح له بمخالطة احد من اقاربه واصدقائه . وحين يموت لا يعلم اهله بموته . فهو بالنسبة الى العالم ميت بصورة الاحياء . اما معاملة المجرمين والقصاصات التي تنفذ فيهم فهي ليست من المساواة بالدرجة التي يتصورها البعض . وانا لا اوم الحكومة الروسية سوى لابعادها الى سيبيريا المجرمين السياسيين او بعبارة اخرى اصحاب الافكار الحرة واكثرهم من تلاميذ الكليات الذين يريدون ان ينشروا مبادئ الحرية والصلاح ولو بواسطة « الديناميت » . فهؤلاء الاحداث والشبان الذين نقدر في صدورهم نار الحرية يطلبون الاصلاح بواسطة الثورات كما كنا نعمل في حداثتنا حين كنا في المدارس . ولكن الحكومة الروسية بدلاً من ان تعير هؤلاء الاحداث (اقول احداثاً لاني شاهدت كثيراً منهم في الخامسة عشرة والسادسة عشرة من العمر) اذناً صاغية وتنظر الى مطالبهم بعين الرضى والاستحسان تبعدهم الى سيبيريا لكي تموت تلك العواطف الشريفة من نفوسهم مدة السجن . وقد تحدثت ملياً مع كثيرين منهم فاخبروني انهم يتأسفون جداً لهذا الضغط التي تضغطه روسيا على الافكار الحرة . ولم يزدوا على هذا ولا تدمروا من معيشتهم . وهؤلاء « السياسيون » لا يلقون في السجن مع غيرهم من

المجرمين المدنين بل لهم سجون خاصة بهم . ويُسمح لهم بقراءة الكتب غير الاجتماعية والسياسية منها . وهم عائشون معاً كعائلة . وبالاختصار ان معاملتهم ليست كما يُظن . وحين تنتهي مدة سجنهم يبقى اكثرهم في سيبيريا حيث يجدون وظائف عديدة لانهم كما تقدم القول من المتنورين . ويمكن ان اقول بدون مبالغة ان ٨٠ في المئة من اصحاب الوظائف المهمة الذين صادفتهم مدة وجودي في سيبيريا هم من المجرمين السياسيين الذين انقروا مدة سجنهم سجن الكسندروفسكي

ولبعد الآن الى وصف ما شاهدته في سجن الكسندروفسكي . فبعد ان استرحنا قليلا ذهبنا لمشاهدة السجن المذكور فدخلنا غرف النوم فالفيناها واسعة جداً ويفصل الواحدة عن الاخرى ابواب حديدية غاية في الضخامة . ولاحظت ان الفريق الاكبر من المسجونين رجال اقوياء البنية ووجوههم مطبوع عليها علامة المجرمين . وكان كل واحد منهم لباساً رداءً من اللباد . ولما كانت هذه الملابس تُصنع كلها على قياس واحد فكنت ترى امامك صوراً مضحكة . وقد استنتجت انهم لا يخافون الموظفين كما كنت اظن قبلاً وان جميع الموظفين غاية في اللطف معهم . ثم ذهبنا لورشة الصنائع فوجدنا المجرمين يشتغلون بعمل ثياب واحذية واثاث بيوت وغيرها . وقد اخبرني الحاكم ان اثاث القسم الاكبر من بيوت اركيتسك هي من صنع سجن الكسندروفسكي . وفي كل واحدة من الغرف كنا نجد معلقاً على الجدران الايقونات الكنائسية (الصور) كما هي العادة عند الروسين . وقد رأيت بين عداد المسجونين ٢٠٠ من مسلمي البلاد التابعة لروسيا كبلاد التتر وبخارى وكرجستان وغيرها ويُسمح لهؤلاء ان يكرسوا يوم الجمعة للعبادة ويسمح لليهود ان يعيدوا السبت ايضاً . ومن الغريب انني وجدت في جملة المنفيين اليهود رجلاً انكليزي الاصل كان قد ذهب الى روسيا بقصد الاتجار فابتداءً هنالك يزور اوراقاً مالية ويقلد تواقع الناس فحكمت عليه الحكومة الروسية بالابعاد ١٦ عاماً الى سيبيريا

وقد سألت الحاكم عن الوسائل التي يتخذها لكي يدفع الفجور والسامة عن المنفيين . فاخذني الى غرفة واسعة فيها رفوف كتب مختلفة المواضيع وفي وسطها موائد عليها جرائد وتجلات تصويرية . وكان حول الموائد كثيرون من المسجونين يترجون بمشاهدة الصور في المجلات . ويوجد معلم خصوصي لتعليم من اراد منهم القراءة والكتابة . ولما آتست من الحاكم هذه المعاملة اللطيفة لم احببت ان امزح معه فقلت له « يظهر لي انكم تعاملون هؤلاء المدنيين معاملة تكاد لا تعدق فلماذا لم تبنوا لهم ماعباً للتمثيل يتسلون به » فاجابني الحاكم

على الفور «عندنا لم ملعب للتمثيل» ثم اخذني الى قاعة جميلة وقال لي «في كل اسبوع يجتمع المسجونون الذين كان سلوكهم حسناً فيمثلون روايات هزلية» ثم طالبني ان اذكر شيئاً عن هذا الملعب في كتاباتي ائلاً يستاء من ذلك روء ساووه في روسيا . وقال لي «يذكر لي بعض السياح الذين يأتون لزيارة السجن هنا انني اعامل المسجونين بلطف كلي ولكني في الحقيقة لا اعمل سوى الواجب . لان المقصود من السجن ليس العقاب فقط بل جل القصد منه ان يعلم السجن ان يكون نافعاً بعد ان يترك السجن . ولذلك فانا لا افرض على احدهم شغلاً لا يعود بفائدة عليه . وقد علمني الاخبار ان اللطف يؤثر بالمجرمين فيحسن سيرتهم ويجعلهم يتفخرون بصنائعهم التي تعلمونها هنا»

ثم زرت المطبخ فوجدته نظيفاً والاكل مغدياً ولذيذاً . وبعده زرت المستشفى حيث لاحظت ان اغلب المرضى مصابون بالتدرن الرئوي . ثم ذهبت الى المدارس التي يتلقى فيها ابناء المجرمين المعارف والصنائع وسررت جداً من النظافة والانتقان في كل المحلات . ولا ريب ان صنيعاً كهذا يشفع بالمعاملة السابقة في الازمنة الماضية مهما كانت درجتها من الشدة

سجن النساء السياسيات

ولانما الفائدة لا ارى بدءاً من ان اذكر قليلاً عن سجن النساء في اركيتسك . فهو وان يكن يسمى «سجنًا» لكن ليس بالحقيقة سوى بيت اعتيادي محاط بجدار عالٍ ومفتوح الابواب في اكثر الاوقات بحيث يقدر من شاء ان يخرج منه بدون ان يشعر به احد . وهو ليس نظيفاً كسجون الرجال . وقد استغربت كيف لا يخافون ان تهرب السجينات منه ما دامت ابوابه مفتوحة فبناءً عليه سألت رئيسته عن ذلك فاجابت «انه لا يحظر ابداً ببال السجينات ان يهربن . وفي طول مدة وجودي هنا كرئيسة لم يحدث غير حادث من هذا القبيل . وذلك انه عندما قرأنا ذات يوم اسماء السجينات في المساء كما هي العادة وجدنا احدهن غائبة فاستغربنا ذلك ولكنها ما لبثت ان عادت ثانية بعد خمسة ايام . فسألناها عن سبب هربها فاجابت «بما انه غير مسموح للرجال ان يزوروا السجن رأيت نفسي مضطرة ان اذهب لارى حبيبي في مكان قريب» فسامحتها لان عذرهما مقنع . .